مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يقول تعالى لنبيِّه ﷺ هذه القصة وأشباهَا ﴿ مِن أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ يعني: من أخبار الغيوب السالفة ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ ﴾ أي: نُعلمك بها - وحياً منَّا إليك - على وجهها كأنَّك شاهدها ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ ﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علمٌ بها، حتى يقول من يُكذِّبك: إنك تعلمتها منه. بل أخبرك الله بها مطابقةً لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كُتب الأنبياء قبلك.

﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي: فاصبرْ على تكذيبِ مَن كذَّبك من قومك، وأذَاهُم لك؛ فإنَّا سننصرك ونَحوطَك بعنايتنا، ونجعل العاقبةَ لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين، حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ

(١) هود: ٤٩.

ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [2]

أخي المسلم: ذاك ما ذكره الإمام ابنُ كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۛ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ وفي قول ابن كثير: " هذه القصة وأشباهها " يُشير إلى قصة نوح مع قومه، وما انتهى إليه أمرُه وأمرُهم، وهي قصةٌ تُتْلَى في القرآن الكريم؛ لتكون موعظةً للمؤمنين، كما كان فيها - وفي أشباهها - تثبيتٌ - أيُّ تثبيت - للرسول ﷺ وهو يُلاقي ما يُلاقيه من قومه من كيد وصَدٍّ، فكانت هذه وأشباهها - بالنسبة لرسول الله ﷺ - كما قال الله ﷻ: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [3]

وستظل هذه القصة تعمل عملَها في نفوس المؤمنين حيث كانوا إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها، كما ستظل العاقبة فيها بلاغاً للناس تُعلمهم أنَّ الأمورَ بعواقبها، وأنَّ الطغيانَ - مهما بلغَ - فعاقبةُ أهله بوار ودمار وخُسران، وأنَّ لا شيءَ يمكن أن يعتصم به الظالمون إذا حَلَّ بهم مَقْتُ الله وغضبُه، إلاَّ بصدْق إيمان ويقين؛ فقد أَرَتْنَا القصةُ ما جرى مع ابنِ نوح، ونوح عليه السلام يُناديه: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾ [4]

فما الذي جرى معه حين اعتصمَ بغير الإيمان بالله وحُسن الاستجابة له ؟

---

(١) غافر: ٥١، ٥٢.

(٢) الصافات: ١٧١- ١٧٣.

(٣) هود: ١٢٠.

(٤) هود: ٤٢، ٤٣.

لم يجد ما يعتصمُ به أو يلجأ إليه؛ إذ لا ملجأ من الله إلا إليه، وحِمَى الله لا يُطلَبُ إلا بالإيمان به، وما عنده لا يُرْجَى إلا بطاعته، ولا مقدرةَ لأحدٍ من خَلْقه على جَلْبِ نفعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ.

ولم أرَ سفينةً برَّتْ بصاحبها وأَمَّنَته من العواصف الهوج والأمواج الصاخبة، مثل ما فعلت سفينةُ الخير، سفينةُ الإيمان بالله.. بَرَّتْ به في الدنيا، فلم تجعل لليأس سبيلاً إلى نفسه، وبعثت الطمأنينةَ إلى قلبه بذكر ربِّه، وجعلت الأحداثَ تبنيه ولا تهدمه، والمصائبَ تُعليه ولا تُنـــزله.

ومَن تدبَّر هذه القصةَ التي أشارت إليها هذه الآيةُ الكريمة - وهي من أنباء الغيب - وجد فيها عِبرَتَه وهدايته، وعَرَف الطريق الذي لا طريقَ غيره للفوز والنجدة، وكُلُّ شيءٍ خاضع لأمرِ الله، مُسَبِّحٌ بحمده.

والأشياءُ يمكن أن تُساق لمنفعة الناس، ويمكن أن تتحوَّلَ بمعاصيهم إلى نِقْمَةٍ عليهم. فالماءُ يمكن أن يكونَ غَدَقاً، ويمكن أن يُسَاقَ غَرَقاً، وهو في الحالين مأمورٌ بأمر ربِّه، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ !

ومَن قال - وهو يجحَدُ نعمةَ ربِّه -: ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [1] غرق بالماء الذي رأى نفسَه به !

ومَن قالَ: ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ امتَدَّ الماءُ إليه بأمر رَبِّه، وأتَى به ! ولو اعتصم برؤوسِ الجبال. ولو كان ابنَ نبيٍّ ورسول.

---

(١) الزخرف: من الآية ٥١.

وما كان للأرض أن تأتمرَ إلاَّ بأمر ربِّها، وما كان للسماءِ أن تستجيبَ إلاَّ لنداءِ خالقها.

لقد كُذِّبَ نوحٌ عليه السلام ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ ﴾ (١)

سفينةُ النجاةِ تحمل أهلَ الإيمان، وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال، وهي ذاتُ ألواحٍ ودُسُر، محفوظةٌ بحفْظ الله، سالمةٌ برعايته..

ترى الماء لناس بارًّا، وتراه لآخرين ساخطاً غاضباً، مُغْرِقاً. ولا تبتلعُ الأرضُ ماءَها إلاَّ حين تُؤْمَر، ولا تُقلِعُ السماءُ إلاَّ حين يؤذَنُ لها.

وفي القصة التي معنا نرى الأمرَ قد صدر للأرض وللسماء بعد أن قُضِي ما من أجله فُجِّرت الأرضُ، وفُتِحَت السماء ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ﴾ (٢)

أخي المسلم: ذاك من حديث القرآن في هذه القصة، وهو حديثٌ له دلالته، وله عبرته. حديثٌ يُخاطَبُ به الإنسانُ على مَرِّ الزمان؛ ليعلم أن لله في خَلقه سُنناً لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، وليحذر أن يكون على شاكلة الأوَّلين المُفرِّطين، وليتبع سبيلَ المؤمنين الذين طاب ذِكرُهم، وحَسُنَ سعيُهم، وعَظُمَ أجرُهم، وكانت العاقبة لهم، والعاقبة لا تكون إلا للمتقين.

---

(١) القمر: ١٠- ١٥.

(٢) هود: ٤٤.